

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

منتدى الرواية

المنصة الرقمية لمُدَارَسَةِ الروايات السُّودَانِيَّة

جلسة النقاش رقم (2)

رواية أزمنا الترحال والعودة- الحسن محمد سعيد

السبت 2020/06/13م

قراءة نقدية: الدكتورة، مواهب إبراهيم

جماليات البناء السردي في رواية أزمنا الترحال والعودة

للحسن محمد سعيد

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد، مساء النور، في البداية الشكر أجزله للأستاذ محمد الخير حامد على هذه المبادرة الاسفيرية الرائعة للتحليق في فضاءات الحسن محمد سعيد الروائية، والشكر للمتحدثين د/عاطف الحاج سعيد . والاستاذ أحمد الشريف، الذين تفضلا بالحديث قبلي، وسعيدة جدا بوجودي وسط ثلة من الأدباء والروائيين والمثقفين، التحية لكم جميعاً .

بما إنني المتحدث الأخيرة في هذه الجلسة فسوف تكون مداخلتني بعنوان "جماليات البناء السردية في رواية (أزمنة الترحال والعودة، للحسن محمد سعيد) وهي عبارة عن نقاط مختصرة وإضاءات قصيرة تدور في فلك الرواية، تتناسب مع الزمن الذي مُنح لي، وباعتبار أن من سبقوني قد تحدثوا عن تقنيات الرواية المختلفة .

تأتي أهمية هذه الرواية كونها تمثل مرحلة مهمة من مراحل التغيير السياسي في السودان، وفترة استبداد السلطة، وتبين اشكالية العلاقة بين السلطة والمواطن المثقف المناضل، وغياب الحوار المتبادل الهادف الذي يؤدي إلى تقريب المسافات بين السلطة والمواطن، حيث صار الفرد مجرد شخص مستلب تائه عاجز عن الفعل . مما يجعل المواطن يترك بلاده مجبراً ومقهوراً يتطلع للبحث عن ذاته التي سلبت وحطمت خارج إطار وطنه .

❖ أول نقطة أقف عندها هي: العتبة الأولى للرواية وهي عنوان الرواية " أزمنة الترحال والعودة" باعتبار العنوان هو سلطة النص وواجهته الإعلامية فهو الثريا التي تضيء فضاء النص، وتساعد على اكتشاف أغواره، فالعنوان يحيلنا مباشرة إلى أحداث النص، فهي تحكي عن أزمنة مختلفة، وأمكنة متعددة يرتحل إليها الفرد ويحلم بالعودة منها نتيجة لطغيان السلطات ودكتاتورية الحكومات، والواضح من هذه العتبة أن عوالم الكاتب تضج بالترحال والمعاناة في أزمنة مختلفة، ولا غرابة في ذلك فكاتب الرواية عانى من الغربة أكثر من عشرين عاماً، لذلك نجد عوالم الكاتب تضج بالأمكنة

التي نقشت على جبينه بحروف من نور، فالمتصفح لعناوين مؤلفاته يجدها تضح بالحنين إلى الأمكنة والمدن، التي منها "رواية عطبرة" وهي التي كان لها القدر المعلى في كل كتاباته، فهي ماضيه وحاضره، والمستقبل الذي يستشرفه، وكذلك عنوان رواية "ثلوج على شمس الخرطوم" ورواية "أبو جنزير" ثم رواية "البقعة" والمجموعة القصصية "ريحان الحلفايا" فنلاحظ حضور الأمكنة وذكرى المدن بكثافة في عوالم الحسن محمد سعيد الروائية، ولعل المكان من المكونات المهمة في الرواية، فليس المقصود هنا المكان الجغرافي فحسب، لأن المكان يتحول إلى عبء يتحمل دلالات نفسية واجتماعية وتاريخية. لذلك تم ذكر هذه النقطة المهمة. فالمتلقي يدخل إلى عالم النص مستصحباً معه عنوان الرواية باعتباره جزءاً لا يتجزأ منها، والملاحظ أن عنوان هذه الرواية قد تكرر كما هو، أو بجزء من عباراته، في متنها أكثر من عشر مرات، ومن ذلك "رأى كالزلزلة.. يحسه بحواسه، ولكنه لم يدركه بعقله إلى أن جاءت "جيني"، فكانت نقطة التحول التي جمعت بين أزمنة الترحال والعودة". ص75، و"أي أزمنة هذه التي ألت به لتجعله مقعداً عن أزمنة الرحيل" ص84، وفي ذات الصفحة "إنها المدينة الطاردة، أرض الإلهام العاقر، والوحي المفقود، أزمنة الترحال" ص84، وفي ص85 "هدأت النفس قليلاً وهو في جوف الطائرة في زمن من أزمنة ترحال إلى مجهول آخر". ومنها "اختفى البيت العتيق في أزمنة الغربية والترحال" الرواية ص122. سأكتفي بهذه النماذج فقط وذلك نسبة لضيق الوقت، ويمكنكم متابعة ذلك في الرواية، ولعل عدم الاستقرار والانتقال من مكان إلى آخر يعود لجبروت السلطات، لذلك كان هاجس الكاتب الذي حاول أن يعبر عنه من خلال هذا السرد، فجاء مكرراً في متن الرواية.

2- نتناول هنا جانباً من بنية الزمن في الرواية من خلال المفارقات الزمنية المتمثلة في تقنيتي "الاسترجاع، والاستباق" والمفارقة الزمنية، إحدى التقنيات التي تقوم عليها بنية

السرد، وهي تبني على الاختلاف القائم بين زمنين: زمن القصة وزمن السرد، فكل منهما نظامه الخاص " زمن القصة بالضرورة يخضع للتتابع المنطقي للأحداث، بينما زمن السرد لا يتقيد هذا التتابع المنطقي. وتتولد المفارقة الزمنية التي يبتعد فيها الراوي قليلاً، أو كثيراً، عن المجرى الخطي للسرد، فقد يعود إلى الوراء ليسترجع أحداثاً تكون قد حصلت في الماضي، أو العكس من ذلك قد يقفز إلى الأمام ليستشرف ما هو آتٍ أو متوقع من الأحداث، وفي كلتا الحالتين، نكون إزاء مفارقة زمنية توقف استرسال الحكى المتنامي، وتفسح المجال أمام نوع من الذهاب والإياب على محور السرد انطلاقاً من النقطة التي وصلتها القصة. (حسن بحراوي بنية الشكل الروائي، 119 " وقد احتلت المفارقة الزمنية حيزاً لافتاً للنظر داخل المبنى الحكائي، وقد أجاد الكاتب توظيفها لتعرض التداخلات الزمنية من خلال الأحداث. ومن أبرز التقنيات الجمالية التي استخدمها الكاتب هنا تقنية الاسترجاع ومنها: "رد معروف عليه وهو يسترجع سنوات خلت حين ودعه آنذاك وهو ينوي غربة مجهولة المصير" الرواية ص 9.

شعيب: لقد انقطعني أخبارك منذ سنوات طويلة .

لو تدري يا صديقي، قالها معروف في سره، ثم نظر إلى شعيب وهو يجترُّ عالماً من ذكريات الأنس والبهجة في مدينة عطبرة وهنا في العاصمة " الرواية ص.10

في هذا الاسترجاع بالأحداث إلى الماضي أراد الكاتب من خلال هذه التقنية توضيح العلاقة بين شعيب ومعرف، ومدى متانتها وقوتها، حيث إنها علاقة قديمة بدأت بمدينة عطبرة، منذ سنوات خلت، واستمرت قوية ووطيدة حتى مجيئهما إلى الخرطوم. ومنها " وفي هذه اللحظة من تداعي الذكريات خطر عبد الباسط على باله" ص 17 والقصد من هذا الاسترجاع تقديم شخصية جديدة للمتلقى وهي شخصية "عبد الباسط" لكي يوضح ما يربطه بمعروف وشعيب من علاقة، فهو كان أحد

أصدقائهم الذي انحرف عنهم نحو السلطة. ثم ينتقل بنا السارد إلى تذكر أحداث كان لها دور حزين في تفاصيل الرواية " أصبح لهذا الحي ذكرى خاصة ازدادت عمقا بعلاقاته المتينة مع ابنائه لابد إنه يتذكر الآن كلمته للتاريخ في منزل صديقه عز الدين ، 22 وفي ذلك إشارة إلى المقال الذي نشره وكان سببا في فصله من عمله، وقتل شخصيته معنوياً.

ونري أن السارد يكثر من استخدام صيغ التذكر في أسلوبه أسماءً وأفعالا ، مثلا "الذكرى، يتذكر ، يسترجع، يجتر الذكريات" يقول : توقف قليلا وهو يجتر الذكريات ثم واصل " ص78 " تذكر معروف ذلك الحوار الذي دار بينه وبين شعيب عندما جلس يدون الخطوط العريضة لكتابه عنه "تذكر يوما "جيني" وحديثها له عن ضرورة الإقدام، " ص91. " رجع به حديث يونس إلى أيام خلت في جمعية عطبرة الخيرية " 91 تذكر "جيني" هذا زمنها ووقتها وعطاؤها الذي ينهل منه "ص90 وغيرها. ومع هذا التكثيف في استخدام صيغ التذكر يتضح لنا احترافية الكاتبة في استخدام تقنية الاسترجاع في بنية سرده، واعتقد أن الفصل الأول للرواية كان عبارة عن استرجاع ذكريات "معروف" مع "شعيب" وأصدقائهم الذين فرضت عليهم سبل الحياة، وظلم الحكام وجبروت السلطة، الابتعاد، والفرقة، والاعتراب .

ولعل هذا يوضح لنا سبب ميل الكاتب إلى استهلال بعض فصول روايته بصيغة الماضي، فهو يعود بذاكرته إلى الماضي البعيد لاسترجاع أحداث خرجت عن حاضر السرد لترتبط بفترة زمنية سابقة على بدايته، جاء في بداية الفصل الثالث: " نفذ ما قاله وسافر إلى عطبرة، لا أنيس له سوى مكتبته القديمة، فقد أعادت إليه أجمل ذكريات هذه المدينة التي لها في نفسه طعم خاص دون غيرها من مدن السودان " ص32 ، وفي مستهل الفصل الرابع " كان وداعاً حزيناً .. اختصر ذكريات لاجوس في

لحظة" ص73. والفصل الخامس " كانت تجربته مع الفنان النرويجي تجربة ثرة ومدهشة " ص94.

وبهذا نرى أن هذه الاسترجاعات المختلفة كان لها الدور المهم في تقديم معلومات تخص شخصيات الرواية، أو الإشارة إليها أثناء سرد أحداث الرواية، وكذلك تمنح بعض الشخصيات فرصة الحضور والاستمرارية في بنية النص السردي.

3- تعتبر الشخصية هي أساس العمل الروائي، فهي العنصر الذي تتجمع عنده كل عناصر العمل الروائي بما فيها من عناصر الزمان والمكان والحدث. فهي واسطة العقد في كل ذلك، وسوف أتناول في هذه النقطة شخصيتين محوريّتين من شخصيات الرواية، هما شخصية "شعيب" وشخصية "معروف" وسوف ابتدر ذلك بسؤال: "هل شخصية شعيب بالصورة التي رسمها الكاتب كانت قادرة على إثارة الدهشة فينا واقناعنا بأعبارها الشخصية المحورية الأولى التي تدور حولها أحداث الرواية؟؟؟؟؟" أعتقد أن الكاتب حاول أن يخلق من "شعيب" شخصية غير عادية، يمجدها بصورة فيها كثير من المبالغة، فهو المنقذ والنبي والوطن "وخاصة لمعروف"، وبالرغم من هذه المكانة لم تفرد له مساحة واسعة في متن النص، ولم تظهر له أعمال ثورية عنيفة وصدمات واضحة مع السلطة، فلم يكن هنالك صراعا قويا يجعله البطل المناضل والمنقذ العظيم، أقسى ما حدث له دخوله السجن. يقول معروف عن شعيب: "إنه عندي الوطن كله..مدنه وقراه بكل ما فيهم من خير وطيبة وحنان إنه أستاذي ومنقذي" ص89، وذكر مرة أخرى على لسان جيني " ..وكتب كتابه وعمل في صدارته إهداء لشعيب، وتحدث عنه كأنه نبي جاء يعلمه الهداية على الصراط المستقيم" ص44، فقد صورّ الكاتب "شعيب" شخصية عظيمة اخطبوطية ممتدة عبر المدن والقارات، فهو في عطبرة والخرطوم، ولاجوس، وأدنبرة، ومرة أخيرة في أم درمان في شوارع "أبوروف". ولعل ما يحفظ للكاتب هنا اختياره اسم "شعيب" لهذه الشخصية

حيث يتناسب الاسم تماما مع الشخصية التي رسمها لشعيب، وغير ذلك استطاع الكاتب كسر أفق توقع المتلقي، الذي لا يمكن أن يتصور أن يلتقي "بشعيب في كل هذه الأمكنة وبهذه الصورة .

الشخصية المحورية الثانية : هي شخصية "معروف" الذي يُعد مثالا للوطني المتعلم المثقف، فهو يمثل قمة الصراع بين المثقف المناضل والسلطة، فهو المثقف المسحوق الذي حين يبحث عن سبل حياة متاحة له لينجو من انكساراته، لا يجد سوى الصدود، وتبدأ السلطة في قتله من الداخل جسدا وفكرة، وذلك بعد مروره بأطوار من المعاناة والقهر النفسي ضمن فعل متطرف واع تقوم به السلطة لتحطيمه، "فيشرد ويفصل من عمله ويسجن" لينتهي به الأمر في النهاية رغم تفوقه الفكري، وتنوعه الثقافي، وسعة إطلاعه إلى شخص مقهور الإرادة، وذلك لأنه يشكل خطورة على السلطة تتمثل في وعيه الذي يرفض هيمنتها واستحواذها، لذلك لا يجد أمامه سوى الهروب من وطنه للبحث عن فضاءات أرحب . أراد الكاتب من خلال شخصية "معروف" تسليط الضوء على هذه السلطة وديكتاتوريتها، وفيها هجاء ساخر للواقع السياسي المعيش، وإدانة للسلطة التي تحطم الأقلام كون الكتابة هي وسيلة المبدع للبوح والإدانة والتغيير، مما يؤشر إلى انعدام حقوق الانسان، وغياب الحريات.

4- تميزت الرواية بتطور واضح في الخطاب السردى - بصفة خاصة في الرواية السودانية- من خلال تعدد الضمائر "بين ضمير المتكلم، والغائب، والمخاطب حيث يتغير نمط السرد تبعا لذلك، وكذلك لجأ الكاتب إلى الإحالة البعدية عن طريق الضمائر، وخاصة عندما يريد أن يقدم شخصية جديدة في متن سرده يلجأ إلى الإحالة البعدية كثيرا، ولعله بذلك يلفت الانتباه إلى الشخصية "راها من الجانب المقابل له في المدرج، بيضاء لا تخطئها العين".. كانت لا تغيب عن محاضراته "ص 39 فهنا ضمير المؤنث الغائب يحيل إلى شخصية سوف تذكر لاحقا . "في حديثها كثير من

المتعة، وفي أفكارها شحنة من الإثارة،.... قالت إن اسمها "جيني" وقد تكررت هذه الإحالات كثيرا في الرواية فهي جديرة بالدراسة، كذلك تطور الخطاب من خلال الالتفات عن طريق الضمائر وتغير الضمير من المتكلم، الى المخاطب، وهكذا "اعتادت عليه، كانت قصيدته الأولى التي قرأها لها "عطبرة معشوقتي" وكان حديثه الطويل عن السودان وأهله، .. وعنك يا شعيب، هو ما رسخ ارتباطها به عندما امتلأت روحها بأخيلة ملونة لذلك المجهول" ص105. كذلك نلاحظ تعدد الأصوات في بعض الأحيان . ولعل استخدام هذه الاحالات عملت على اتساق وتماسك النص وبالتالي ترابطه، فأخرجت لنا نصا جيدا ومتماسكا، يبين لنا احترافية الكاتب وتمسكه بناصية قلمه جيدا .

5- اعتمد الكاتب في بعض الأحيان على الوقفات الوصفية التي تشمل أحيانا المكان، والشخصيات، والخواطر، والتأملات، والاسترجاع في مواقف سردية بصورة تسترعي الانتباه، مما أدى إلى توقف السرد وإبطاء وتيرة الرواية فجعلها ساكنة وجامدة.

6- اتكأت الرواية في كثير من الأحيان على أسلوب الحوار، والمونولوج، واللغة السردية حيناً، واللغة الشعرية أحيانا أخرى.

7- تناص في الرواية كثير من الشخصيات أمثال مصطفى سعيد، والعقاد، وعبد الناصر، وسعد زغلول، وعدد كبير من الشعراء السودانيين أمثال: أدريس جماع، وصلاح أحمد إبراهيم، وتاج السر الحسن، ومن الشعراء العرب أبي القاسم الشابي.

وشكراً جزيلاً..